الفصل الثاني عشر

العدو: الإسلام

لقد بينت الصفحات السابقة بما لايدع مجالاً للشك، أن المرء حديث الإسلام تطرأ عليه تغيرات عديدة لا تشمل داخله فحسب، بل أيضاً تنعكس هذه التغيرات على علاقته بمجتمعه وموقفه منه. ويشير هذا إلى عملية جدلية تؤدي أحياناً في حالات فردية إلى الهجرة.

ويعتمد رد فعل الأسرة والأصدقاء والجيران وزملاء العمل تجاه مقولة «الحمد لله، إني مسلم»، على مستواهم الثقافي، وطبيعتهم ودرجة تدينهم. (ويأتي إصدار بعض الكنائس الإنجيلية في منطقة الرورر لأجندة توضيح أعياد اليهود والنصارى والمسلمين لعام ١٩٩٦ دليلاً على تأثير درجة تمسك الفرد بدينه، سلباً أو إيجابياً، في تقبله للآخرين).

ولم يمثل - لي شخصياً - اعتناقي الإسلام مشكلات بين أسرتي وأصدقائي أو زملائي. فلم أتعرض للمعاملة على أنني مخرف يمر بأزمة منتصف العمر، بل على النقيض. فبعد اطلاعهم على أول كتاباتي الإسلامية، التي نشرت، مثل: «الطريق الفلسفي إلى الإسلام» و «دور الفلسفة الإسلامية»،[1] انفتح مجال حوار ومناقشة واسع النطاق حول موضوعات، مثل: الله في الإسلام ومقارنته بمفهوم الثالوث في المسيحية. ولكن قليلاً منهم من يتذكر أن يهنئني بحول شهر رمضان الكريم، أو عيد الأضحى، بدلاً من التهنئة بأعياد الميلاد.

ولقد كان تقبل أمر إسلامي شاقاً وعسيراً على أمي، هذه المرأة شديدة التمسك

(١) دار نشر المكتبة الإسلامية. كولونيا (١٩٨٤).

بالمبادئ الكاثوليكية، لأنها شعرت بمسؤولية أمام الله من جراء اعتناقي الإسلام، تلك «الزلة». ولقد حاولت، في رسالة أرسلتها لها، أن أوضح الأمر قائلاً: يرى المسلم أن المسيح أحد الرسل اليهود، وهو أعظمهم، المعجزة التي ولدتها العذراء، ولذلك فالفارق بين الديانتين المسيحية والإسلام - كيفما يختار المرء - ضئيل جداً أو عظيم جداً. ولقد اختارت أمي أن تراه عظيماً جداً[1].

لم أتعرض كذلك في عملي لأي مضايقات، ولم يلحق بي أذى، بسبب اعتناقي الإسلام. لقد قلدني رئيس ألمانيا، د. كارل كارستن، في فبراير عام ١٩٨٤م - أي بعد ٣ سنوات ونصف سنة من اعتناقي الإسلام - وسام الاستحقاق. كما قامت وزارة الخارجية بتوزيع كتابي « يوميات ألماني مسلم»[2] على سفاراتها في البلدان الإسلامية، ليكون بمنزلة الدليل والمرشد لأعضائها. كما تناول Wolfgang Günther Lerch الكتاب بالمناقشة في جريدة فرانكفورتر ألجمانيه، في العدد الصادر بتاريخ ١٣ من فبراير عام ١٩٨٦م، في مقال يحمل عنوان: «ألماني مسلم - مذكرات دبلوماسي حول تحوله من ديانة إلى أخرى».

ولم يثر ذلك أي زوابع، مثله مثل تحقيق مصور من عدة صفحات تناول شخصي وزوجتي، ونشر بتاريخ ١٧ من فبراير عام ١٩٩١م في مجلة بيلد. ولم يجادل أحد حتى تلك اللحظة في الفائدة التي تعود على ألمانيا إذ يمثلها مسلم في بلد إسلامي. كما كانت علاقتي بممثلي الكنائس مرضية جداً، بل تشكل لي مصدراً للسعادة، فكثير منهم يدرك أن المسيحيين والمسلمين على حد سواء

(١) عن مشكلات المسلمين الجدد مع عائلاتهم، انظر مراد هوفمان: «كيف أخبر أمي» في مجلة «الإسلام» ميونخ (١٩٨٥) العدد ٥.

(٢) دار نشر المكتبة الإسلامية، كولونيا (١٩٨٥) الطبعة الثانية (١٩٩١).

يستقلون الزورق ذاته في عالم يجنح أكثر فأكثر إلى المادية والجهالة. ولقد وجدت من بعض أعضاء الكنيسة إعجاباً يشوبه بعض الحقد، بدلاً من الإعراض عني الذي توقعه الكثيرون. ولقد أعلن ممثل على مستوى رفيع للكنيسة الإنجيلية في ألمانيا، في أثناء الاحتفال الذي أقيم بمناسبة اليوبيل العشرين لإنشاء جامع ميونيخ أنه يشعر بسعادة بالغة وراحة بين المسلمين، لأنهم يتحدثون عن الله بشكل طبيعي غير قابل للشك، هذا ما لا يجده للأسف الشديد في بعض الدوائر الإنجيلية.

وهذا هو الجو الذي ساد ملتقى الحوارالمسيحي - الإسلامي، الذي انعقد في هانوفر في المدة بين ١٣ - ١٥ من نوفمبر عام ١٩٩٥م. ولقد شاركت الكنيسة الإنجيلية، والأكاديمية الملكية الأردنية لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة أهل البيت)، في ذلك الحوار. ولقد شاركتُ في هذا الحوار البناء، عضواً ضمن الوفد الأردني.

ولقد أثمرت هذه الحوارات حتى الآن نجاحاً ملحوظاً في مجال العلاقات الإنسانية، وليس على مستوى المناقشات الدينية[1].

وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أعلنت في ختام المجلس الملي الثاني بالفاتيكان عام ١٩٦٥م، أنها تتخلى عن تفردها وحدها «بخلاص الأرواح من الذنوب»، وأنها تعترف بالإسلام طريقاً للخلاص، إلا أنها، أي روما، لم تتقدم إلى الخطوة المنطقية التي تتبع هذا الاعتراف، وهي الاعتراف بمحمد قائداً لهذا

(١) يمكن للمهتم بإشكالية هذا الحوار ومداه، أن يرجع إلى: موريس بورمانس، وكتابه: «دروب وسبل للحوار المسيحي - المسلم». وإسماعيل راجي الفاروقي: «ثلاثية الإيمان الإبراهيمي» هرندون الولايات المتحدة، الطبعة الثالثة (١٩٩١). وميشيل ليلونج: «إذا ما كان الرب أراد..»، باريس (١٩٨٦)، ومراد هوفمان: «عن الحوار المسيحي المسلم»، في «الإسلام»، ميونخ (١٩٨٦)، العدد ٦. وباول شفارتسناو: «علم القرآن للمسيحيين»، شتوتجارت (١٩٨٢).

الطريق ومرشداً له، وبالقرآن وحياً إلهياً. وجاء عدم اعترافها ذلك، بالرغم من المجهودات العظيمة التي يبذلها عالم الدين هانز نكونج بمدينة Tübingen، لتحقيق تقدم بهذا الصدد.

وعلى الجانب الآخر، تبين لي أن مثل هذه الحوارات المسيحية - الإسلامية يمكن أن تكون في بعض الأحيان غير مثمرة أو مجدية، بل قد تكون بالأحرى محبطة، ويمكنها أن تأتي بنتائج عكسية. ولقد كنت شاهداً على شيء من هذا القبيل يوم ١٩ من نوفمبر عام ١٩٨٨م بالجزائر، وذلك من خلال محاضرة ألقاها العالم كونج. فبعد أن استعرض بحرص ودقة رؤيته للمسيحية وللإسلام، جاء السؤال الأول سريعاً جداً: «إذا كنت تؤمن بما سمعناه الآن، فلماذا تظل حتى هذه اللحظة مسيحياً؟!». وجاءت إجابة كونج في صورة كتيب كان قد أعده، ويحمل عنوان: (لماذا أظل مسيحياً؟)[1].

واتخذت الندوة فيما بعد مساراً خاطئاً، فلا شيء يجهض الحوار بين الأديان أكثر من محاولة استحواذ طرف على الطرف الآخر.

وتلوح في الأفق إمكانات تقارب، حتى على المستوى الفقهي. ويعود ذلك إلى أن علماء الدين المسيحيين في الكنيستين يعيدون النظر والتفكير في مفهوم طبيعة وماهية المسح كما رآها المسيحيون الأوائل، أي اليهود المسيحيون، وبعدهم المسيحيون الأريسيون، وكان Adolf Von Harnack (المتوفى عام ١٩٣٠) قد لفت الأنظار إلى أن حواريي المسيح لم يؤلهوه، أي إن شهادة الإيمان بالمسيح إلهاً،

(١) باريس (١٩٨٨). وكانت النسخة الألمانية قد نشرت قبل ذلك عام ١٩٨٥، في زيورخ، تحت عنوان: «ما الذي نتمسك به؟».

والمنسوبة إلى الحواريين، لم تصدر عنهم، ولاتعكس حقيقة إيمانهم وجوهر عقيدتهم.

ولقد استمر هذا الاتجاه الناقد والفاحص للمصادر، والذي يتخذ من نصوص العهد الجديد موضوع بحث ودراسة، منذ القرن التاسع. بل إن هذا الاتجاه زعزع اليقين في أكثر معتقدات المسيحيين رسوخاً، حيث أثبت أن الموضع الوحيد، الذي يشير إلى فكرة الثالوث الواردة في خطاب يوحنا الأول - الإصحاح الخامس الآية السابعة - تزوير يعود تاريخه إلى عام ٣٨٠ تقريباً بعد المسيح!!

أما الأمر الأكثر إزعاجاً في الأوساط المسيحية فهو متابعة سياق ومجريات المجلس الملي الموحد الأول، والمنعقد في نيقية عام ٣٢٥ ميلادياً، حيث تمكنت أقلية من المسيحيين في هذا المجمع من القطع بأن المسيح لم يخلق بل وُلد، وأنه يتساوى في ماهيته مع الرب، وهذه القلة قد فرضت رأيها على الحاضرين[1]. أما الأمر المثير للإزعاج حقاً، فهو أن الداعي لعقد هذا المجمع ورئيسه، كان الإمبراطور الوثني قسطنطين. ولقد اقترح الإمبراطور هذه الصيغة الدينية الحاسمة. وفرضها لأغراض سياسية، ألا وهي حفظ السلام الداخلي بالبلاد.

ويمكننا في مجال القول أن نقر بوجود مجهودات عظيمة، ويبذلها علماء الدين بالكنيستين المسيحيتين للوصول إلى ما قبل مجمع نيقية، والوقوف على حقيقة الأمر خصوصاً ماهية المسيح الذي يرون فيه إنساناً اختاره الله فقط لا غير، كما ينادي بذلك كل من Paul Schwarzenau , Hans Kung, Karl Rahmer, Rudolf Bultmann John Hick. وهذا الرأي، يتوافق تماماً مع ما جاء في القرآن بشأن المسيح: ﴿مَا الْمَسِيحُ

(١) لم يتمكن سوى خمسة أحبار من أتباع المسيحية الغربية الأريسية من الحضور.

ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾. (سورة المائدة: آية ٧٥).

وهناك Matthew Fox، الذي يرى المسيح« رؤية روحانية عالمية». ويتحدث عالم الدين الإنجيلي Schwarzenau عن دخولنا فجأة «عصر ما بعد المسيحية»، المصاحب «لعناصر دين عالمي».

وإذا تمكن هذا الاتجاه من فرض نفسه، فلن تقف أي عوائق فقهية في طريق التعاون المسيحي - الإسلامي.

أما بالنسبة للادينيين، فلم تواجهني أي مشكلات معهم، بعد اعتناقي الإسلام. فلقد اقتنع هؤلاء الناس في أعماقهم بأن الدين مسألة شخصية، ومن أدق خصوصيات المرء، وأعتقد أن موقف التسامح هذا على قدر هائل من اللامبالاة. ولقد واجهت موقفاً شبيهاً - بشكل مثير للضحك - يوم الرابع من يونيو عام ١٩٦٠. توجهت في هذا اليوم إلى كنيسة إنجليلية صغيرة (تدعو إلى رفض فكرة الثالوث) بجامعة هارفارد، لإتمام مراسم زواجي الأول.

لم يوجه لنا رجل الدين أي أسئلة عن ديانتنا، بل أراد فقط أن يعلم أننا لسنا شواذ جنسياً.

ولكن هناك ظاهرة أخرى تلحظها بسهولة. فالعالم الغربي لا يقدم المسلمين مشيراً إلى ديانتهم، حتى لا يثار شك حول ذكائهم!! ولقد صادفت تلك المواقف كثيراً، في أثناء رحلاتي لإلقاء محاضرات بصفتي مدير قسم المعلومات بحلف شمالي الأطلنطي، سواء كانت هذه الرحلات داخل الولايات المتحدة أو أوربا. ودائماً ما يتم إغفال ذكر إسلامي عند استعراض سيرة حياتي.

وتلحظ، بالإضافة إلى ذلك، عدم ذكر أو حتى التعرض لتأثيرات الإسلام وإسهاماته في التطور الثقافي للحضارة الغربية. ويسود هذا الاتجاه معظم كتب تاريخ الفلسفة. ولا يمثل الجهل بالإسلام حتى الآن ثغرة في ثقافة الفرد ومعلوماته!

ولكن للأسف، لم تكن جميع ردود الفعل إزاء اعتناقي الإسلام بريئة ومسالمة، كالتي وردت في السطور السابقة. ويعود ذلك إلى فزع يسكن قلوب الألمان، ورعب متمكن من أعماق الشعب الألماني من كل ما هو إسلامي. هذا الفزع التاريخي، يصل إلى درجة غير المعقول، وسرعان ما يتحول وبسهولة شديدة إلى عداء سافر.

ويتغذى هذا الفزع على ذكريات جماعية مشتركة، يتقاسمها الألمان، بل تتوارثها الأجيال عن المنازعات الحربية المريرة بين العالمين المسيحي والإسلامي في العصور الوسطى. لم تغب أبداً عن ذاكرة الألمان - حتى بشكل غير واع - حقيقة وجود المسلمين عدة قرون في إسبانيا وصقلية والمجر.

ولعبت الحروب الصليبية، بطبيعة الحال، دوراً أساسياً في إذكاء هذا الفزع وروح العداء تجاه الإسلام والمسلمين. فلقد أصابت هذه الحروب - برغم نجاحها العسكري - الأوربيين بصدمة ثقافية هائلة ومروعة، لأنهم تيقنوا أن هؤلاء «الكفرة» الحقراء، الذين يقطنون بلاد الشام، أصحاب حضارة كبرى مزدهرة، بل إنها تتفوق على الحضارة المسيحية - الأوربية في مختلف الأوجه والمجالات.

ولقد أدرك بعض الأوربيين، في ذلك الوقت، حقيقة أثارت حرجهم، بل أزعجتهم، حقيقة مفادها أن الغرب هو غروب صباح أشرق في بلاد الشرق.

وتأتي صحوة الإسلام، وعودة الحياة والروح إليه التي شهدها في العقود

القليلة الماضية، لتضيف أسباباً جديدة لفزع الغرب من الإسلام، وخصوصاً أن هذه الصحوة تتعارض تماماً مع تكهنات المحللين المتخصصين في دراسة الشرق.

عندما نشرت في عام ١٩٠١ للمرة الأولى ترجمة القرآن بقلم Max Henning[١] (ظهرت منها عشرات الطبعات الجديدة)، كتب المترجم في مقدمتها «إن الإسلام على ما يبدو قد استنفد دوره السياسي». وكانت هذه العبارة في ذلك الوقت تحمل الكثير من الصحة، نظراً لوقوع العالم الإسلامي بنسبة تصل إلى ١٠٠٪ تحت وطأة الاستعمار الأوربي.

وكان دارسو الإسلام، إبان مدة الاستعمار وحتى خمسينيات هذا القرن، على يقين تام من موت وفناء موضوع بحثهم، حتى إنهم انطلقوا يبحثون عن الإسلام قبل زواله وأفول نجمه، ليتمكنوا من وصفه وتصويره، مثلهم كمثل علماء الأنثروبولوجيا، وعلماء النبات. فلقد كان واضحاً بما لا يدع مجالاً للشك، أن ديانة السكان الأصليين البدائية ستذوب أمام شمس الحداثة الغربية.

أما الصدمة الكبرى، والأمر المثير لاستفزاز دولة الغرب وحكوماته، فهو ذلك التطور في مسيرة الإسلام وصحوته، والذي بلغ قمته عندما ألحقت دولة شيعية، هي إيران، إهانات بالغة ومتتالية لأميركا، بدأت منذ عام ١٩٧٩. وأن هذه الدولة تصمد لكل ردود فعل الولايات المتحدة وعقوباتها. وعلى الجانب الآخر، أجبر المجاهدون الأفغان الجيش السوفيتي، وهو جيش قوة عظمى، على الانسحاب من أراضيه.

ويعد الكثير من الغربيين صمود الإسلام، ورفضه الانسحاب من مسرح

(١) قد يكون هذا اسماً مستعاراً لأوجوست مللر (أستاذ الاستشراق).

الأحداث خروجاً عن سياق الزمن والتاريخ، بل إنه يمثل إهانة بالغة للغرب، خاصة بعد انتصار النظام «الرأسمالي» على غريمه الشيوعي. ومنذ ذلك الوقت يلحظ الكثيرون انتشار ظاهرة محددة يشخصونها، تحت مسمى أعراض مرض زهو انتصار ثقافي إمبريالي غربي.

وأبلغ بيان لهذا الوضع، هو كتاب (ظهر أول الأمر في شكل مقال) «نهاية التاريخ» لكاتبه فرانسيس فوكوياما[1]. وقد كان فوكوياما يشغل في ذلك الوقت منصب رئيس قسم التخطيط بوزارة الخارجية الأمريكية. ونلحظ هذا التوجه في نظريات برنارد لويس، صمويل هانتبختون Samuel P.Huntington, Bernard Lewis حول «صدام الحضارات». [2]. ويرى هذا الإرث الفكري الأصولي للحداثة والمنتشر كذلك فيما بعد الحداثة، أن الحضارة الغربية (أو على وجه الدقة أسلوب الحياة الأمريكية) أفضل النماذج التي يمكن أن تصل إليها الإنسانية. وتعمل الحضارة الغربية على تشكيل منظومة القيم المسيطرة على مجريات الأمور، بل مستقبل الإنسانية كله.

فالغرب بفلسفته الحياتية، ونظامه الاقتصادي والسياسي، وفرضياته العلمية، وتكنولوجياته، ومفهومه عن حق الشعوب، وغيرها من معطيات الفكر والحياة، يمثل نموذجاً إلزامياً لما يسمى بالعالم الثالث وشعوبه. وتجد الأخيرة هذه نفسها أمام خيارين إما أن تتغرب بلا أدنى قيود (يطلق المسلمون على هذه العملية مصطلح كوكلة، وهو مشتق من كوكاكولا). وإما أن تتهمش إلى فقدانها لأي قيمة، وأن تنسحب في آخر الأمر من التاريخ.

(١) فرانسيس فوكوياما «نهاية التاريخ والرجل الأخير». نيويورك (١٩٩٣). ولقد نشرت المقالة عام ١٩٩١.

(٢) س. م هانتبختون «صدام الحضارات»، في «شؤون خارجية»، المجلد ٧٢، العدد ٣، صيف ١٩٩٣، نشر قبلها مقال «جذور الغضب الإسلامي» لكاتبه برنارد لويس («الأطلنطي» ٢٦٦، العدد ٣، سبتمبر عام ١٩٩٠)، والذي تناول فيه الصراع بين الحضارتين (الغربية والإسلامية (مترجم)).

ويتفق المحللون السابق ذكرهم على وجود حضارة واحدة فقط - بالإضافة إلى الحضارة الكنفوشيوسية - ترغب، بل وتعمل على التنصل والانسلاخ عن هيمنة الثقافية الغربية على العالم، بل وتتصدى لمحاولتها القضاء على خصوصية الأقاليم المختلفة. . تلك الحضارة هي الحضارة الإسلامية. فمن الواضح أن الإسلام يجرؤ على طرح نفسه بديلاً للحضارة الغربية[1]. ولذلك يتنبأ كل من Huntigton, Lewis بوقوع صدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية. وقد دفع هذا السبب ذاته السكرتير العام لحلف شمالي الأطلنطي في ذلك الوقت، كلايس، إلى مطالبة المخططين العسكريين للحلف بالتأهب لصراع محتمل ومتوقع وقوعه بين الشمال والجنوب.

❖ ❖ ❖

وتنطلق مجدداً صيحة «الأتراك قادمون»، لتعيد إلى الذاكرة الأوربية الصدمة التي حلت بفيينا بل أوربا كلها عندما طرق الأتراك أبواب العاصمة النمساوية. ويظهر العدو الجديد متمثلاً في الإسلام والمسلمين.

كما تتأثر العقلية الغربية من ناحية أخرى حتى يومنا هذا، بما لحق بشخص محمد في العصور الوسطى من تصويره بصورة سيئة. ولقد تعرض محمد لقذف وسب مريرين في ذلك الوقت، في أوربا حيث نُعتَ بالدجال، والمخادع، والمحتال، والشهواني. وبلغ هذا السب ذروته بنعتهَ بكلب الجحيم. ويسميه رشدي في روايته ماهوند (المقطع الثاني هوند يعني بالألمانية كلباً). وتقول أنا

(١) جاء كتابي «الإسلام كبديل» ديدريشسي ميونخ (١٩٩٢) (رداً غير مباشر على كتاب فوكوياما المذكور في ٩٧، وقد ظهرت منه عدة ترجمات. طبعته الإنجليزية: «الإسلام: البديل» ريدنج، المملكة المتحدة (١٩٩٣). وطبعته العربية: «الإسلام كبديل» ميونخ/ الكويت (١٩٩٣).

ماري شيميل بهذا الصدد: «أثارت شخصية محمد أكثر من أي شخصية تاريخية أخرى مشاعر الخوف والكراهية والاحتقار في العالم المسيحي. وحين يلعنه دانتي في عمله «الكوميديا الإلهية»، ويضعه في أعمق بؤرة في الجحيم، فإنه بذلك إنما يعبر عن مشاعر عدد لا يحصى من مسيحيي العصور الوسطى[1].

وفي واقع الأمر، فإن رسول الإسلام، الذي يحظى باحترام مليار إنسان، لا يتمتع حتى الآن في الغرب بأي حماية قانونية. فالإساءة إليه وتشويه صورته لا يقعان تحت طائلة القانون، بل إنهما من الأمور المقبولة سياسياً.

ويشعر المسلم بآثار النظرة السلبية المتعمقة في نفوس الغربيين، بل يتأكد منها يومياً، عندما يرى «الكيل بمكيالين» في أي مشكلة يكون المسلمون طرفاً فيها.

وإنه لمن أشد الأمور عجباً تسامح الغرب تجاه «السوبر ماركت الديني»، والذي يباع فيه كل شيء لكل من شاء:

أتباع مذهب الأنثروبوسفيا لمؤسسه: Rudolf Steiner. بوذيون من أمثال: - Hare Krishaa - Jünger. وأتباع مذهب التكهنية الهندي، مثل Carlos Castaneda. وعابدو آلهة أنثوية، مثل Christa Mulack[2]. وعابدو الشيطان Richardgere، وهم أتباع بعض العبادات والطقوس التي تؤله الشيطان.

عندما أعلن النجم السينمائي ريتشارد جير اعتناقه للبوذية، لم تثر أي تعليقات سلبية، ولم يتعرض لأي قذف أو مضايقات. فكل شيء مسموح به، إلا أن تكون مسلماً. هذا إذا أردت أن تنأى بنفسك عن المضايقات والمشكلات.

---

(١) أنا ماري شيميل «ومحمد رسوله» الطبعة الثالثة. ميونخ (١٩٩٥)، ص٧.

(٢) - «على درب الآلهة» مارل (١٩٩٢).

تتحدث وسائل الإعلام، من وقت إلى آخر، بشكل لائق وفي احترام بالغ عن طقوس اليهودية المتشددة، خصوصاً طائفة Lubewitscher، ويتابعون بحرص طقوس الفصل بين الجنسين، تدابير الزيجات، وتصفيفات شعرهم ذات المغزى الديني، وملابسهم، وغطاء الرأس، وآداب الطعام، والنحر ورفض تناول لحم الخنزير. ولكن لا يتهمهم أحد بانتهاك حقوق المرأة، أو أن هذه الطقوس رجعية أو متعصبة. ولكن هذه هي الصفات التي تلصق بالمسلمين، إذا ما سلكوا هذا المسلك نفسه.

ويظهر أكثر ما يظهر بوضوح نهج «الكيل بمكيالين» في التقارير الإخبارية التي تبثها وسائل الإعلام، والتي تتناول الإرهاب. فلم يتحدث أحد أبداً عن هتلر الكاثوليكي، أو ستالين المسيحي الأرثوذكسي. كما تتجنب وسائل الإعلام وصف زعيم الصرب كارادتش بالمسيحي. ولكن في اللحظة التي يمسك فيها عربي بسلاح في يده، يشار إليه بصفته الإرهابي المسلم، حتى وإن كان هذا العربي مسيحياً فلسطينياً، أو بعثياً لا يؤمن بالله.

لم يخطر ببال أحد أن يصف الأسلحة الذرية التي أسقطت على نجازاكي وهيروشيما بـ«القنبلة المسيحية». ولكن إذا ما تناثرت شائعات أو حامت شكوك حول قيام دولة إسلامية بصنع أسلحة ذرية، يكثر الحديث فوراً عن «القنبلة الإسلامية». كما أنني ألحظ أن صفة «متعصب» حجزت سابقاً للمسلمين. فالقذافي، وخوميني، وصدام حسين متعصبون، أما ميلوشفيتش فلا. الهجمات المسلحة في كتالونيا وإقليم الباسك وأيرلندا الشمالية، لا يقوم بها «باسكيون متعصبون»، أو «كاثوليك متعصبون»، بل أعضاء جماعة ETA وجماعة . . RAI.

ولقد تطور هذا السلوك، حتى إنه اتخذ شكلاً عبثياً. فالمسلم يصنف متعصباً إذا لم يصدر منه أي سلوك يؤخذ عليه سوى الصلاة والصيام. أما إذا كان ملتحيًا، فتلصق به فوراً صفة متهم، ويلقى صعوبات هائلة من موظفي الجوازات. (هذه اللحية ذاتها كانت تعد تقدمية، نسبة إلى شي جيفارا).

أما أكثر الأمور خطورة، فهو التصوير الخاطئ والتشويه الذي تعرض له الإسلام في بعض وسائل الإعلام خلال الخمسة عشر عاماً الماضية، وإضرام نار الخوف من هذا الدين وأتباعه. ولقد استهدف المسلمون من كتابات بأقلام: Gerhard Peter Scholl - Latour و Gerhard Konzelmann (التحدي الإسلامي عام ١٩٨١)، Rolf Stolz, Bassam Tibi: (الملا على ضفاف الراين. الزحف الإسلامي نحو أوربا. ميونخ عام ١٩٩٤). وبالإضافة إلى ذلك مجموعة من المقالات في المجلات وفي برامج تليفزيونية.

فالناس تعلق بأذهانهم برامج حديثة مثل: «إرهاب باسم الله» (١٨/ ٩/ ١٩٩٤ على قناة RTL)، و «حرب مقدمة باسم الله» (١٥/ ٩/ ١٩٩٤ على قناة ARD بافاريا ٣) [١].

ولقد مكنت هذه الكتابات مجلة Bunte من التساؤل في العدد الصادر بتاريخ ١٩/ ١/ ١٩٩٥ عما « إذا ما كان مركز التهديد قد انتقل من موسكو إلى مكة». ولقد كانت المجلة على ثقة تامة من عدم جرأة أحد من القراء على نفي ذلك أو معارضته.

(١) قام محمد أمان هربرت هوبوم بتحليل تحيز وسائل الإعلام الألمانية بشكل رائع في: الإسلام والمسلمون في وسائل الإعلام والدوائر الحكومية في ألمانيا. إسهامات قدمت في المؤتمر السنوي للأكاديمية الملكية الأردنية بعمان (١٩٩٤).

أما أكثر أنواع الهجوم خطورة على السلام الديني والتعايش السلمي بين الأديان في ألمانيا، فيقوده بسام طيبي - الدمشقي الأصل - أستاذ العلوم السياسية (في مدينة Gottingen). ولقد كان بسام يوماً ما يعتنق الفكر الماركسي، أما اليوم، فهو ما يمكن أن نطلق عليه: «إسلامي الثقافة». وبسام طيبي شديد الانبهار «بمشروع الحداثة الأوربي»، الذي أخذ يشكك في نفسه منذ مدة ليست بقصيرة. وهو يضع - إذا كانت قراءتي له صحيحة - الإسلام نقيضاً تاماً لهذا المشروع الأوربي، ويصفه باللامعقولية، وأنه دين شمولي غير قادر على التعايش السلمي[1].

وجاءت مقالته بمجلة شبيجل عام ١٩٩٤، شاهدة تماماً على أسلوبه. وقد حملت المقالة عنواناً جارفاً، مثيراً: «كالنار والماء»، وتضمنت آيات من القرآن الكريم مضلِّلاً بها. وقد ادعى مجدداً في مقالته أنه يستحيل التوفيق بين الإسلام وحقوق الإنسان الفردية»، وأن «الشرع الإسلامي يفصل المسلمين عن الحضارة التي تعترف بحقوق الإنسان»[2]. ويوحي طيبي المسلم المقيم في أوربا بضرورة التوصل لـ «إسلام أوربي»، يتماشى من الحداثة، به الكثير من أوربا والقليل من الإسلام.

ولقد شعر المسلمون في أوربا بامتنان شديد، لأن غير المسلمين استاؤوا من

(١) نعد أكثر أعماله انتشاراً: «أزمة الإسلام الحديث»»، فرانكفورت (١٩٩١). «التآمر: كابوس السياسة العربية» هامبورج (١٩٩٣). «الأصولية الإسلامية، العلم الحديث، التكنولوجيا» فرانكفورت (١٩٩٢). «الإسلام ومشكلات التغلب الحضاري على التغير الاجتماعي» فرانكفورت (١٩٨٥). « في ظلال الله - الإسلام وحقوق الإنسان» فرانكفورت (١٩٩٤).

ويدعي المؤلف في كتاباته «أن الشرق كان سيبقى متخلفًا حتى وإن لم يقع تحت طائلة الاستعمار» وهذه المقولة أبلغ وصف للمؤلف، وليس للشرق.

(٢) بسام طيبي: «كالنار والماء» في مجلة «دير شبيجل» العدد ٣٧ لعام (١٩٩٤) ص ١٧٠ ص ١٧٢.

التشويه الذي لحق بالإسلام. ولقد عبر هؤلاء عن استيائهم هذا، فقام Gernot Rotter بكشف القناع عن Konzelmann، وكشفه وأصابه بصورة لم يتعرض لها كاتب من قبل[١]. وتعرض Scholl - latour في عام (١٩٩٣) للشيء نفسه، وبوساطة، Verona Klemm Karin Horner[٢]. وفي العام ذاته، كشفت Dorothea Bolke حقيقة كل من سبق ذكرهم معاً Konzelmann, Scholl Latour وبسام طيبي[٣].

وقامت الناقدتان Marfa Heimbach, Goltscheher Jung في عام ١٩٩٤، من خلال معالجة تهدم فكر طيبي، بتوجيه الأنظار إلى تحذيره المستمر من تحذيد يصيب أوربا من جراء تحد إسلامي أصولي. ولكنه يعني بالأصوليين كل من يستخدم كلمتي «قرآن» و «إسلامي» فقط. ولقد توصلت الناقدتان إلى نتيجة، مفادها: أن تصوير الأمر من جانب واحد سينشأ عنه في نهاية الأمر جوٌّ عامٌّ مشبع بالعداء والكراهية «قدرة هائلة على العداء والكراهية، أدت قبل خمسين عاماً إلى حرب إبادة لليهود، كما يتعرض مسلمو يوغوسلافيا السابقة اليوم لمثلها»[٤].

ويعبر Mark Heller – مع آخرين – عن نظرية مفادها: أن العالم الإسلامي يمثل

(١) جرنوت روتر: «أدعياء الله»، و«الغزوات الإعلامية لخبير الشرق الأدنى جرهارد كونتسلمان»، هايدلبرج (١٩٩٢).

(٢) فيروناكليم وكارين هُرنر: «سيف الخبير». صورة العرب والإسلام المشوهة عند بيتر شول لاتور. . هايدلبرج (١٩٩٣).

(٣) دورثي بُلكه: «ثلاثة رجال في قارب واحد. الأصولية الإسلامية عند بيتر شول لاتور، جرهارد كونتسلمان وبسام طيبي»، في «سيف الخبير» – انظر ١٠٦.

(٤) ج. يوخ وم. هايمباخ: «بسام طيبي» – آراء حول الحداثة الأوربية والأصولية الإسلامية» في «حوار الأديان حوار حول التراث والمعاصرة». العدد ٣، بالف (١٩٩٤).

استثناء سلبياً في إطار التطور العالمي نحو الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان[١]. وكأن المسلمين بطبيعتهم غير قادرين على ممارسة الديمقراطية. ويعد بعضهم هذه النظرية شكلاً من أشكال العنصرية الثقافية، في إطار ما بعد الحداثة. ولقد تم دحض هذه النظرية في مجموعة مقالات بعنوان ديمقراطية بلا ديمقراطيين»؟ ولقد شاركت عالمة الإسلام الألمانية (Bonn) Gudrun Kramer بمجهودات عظيمة في هذا العمل[٢].

ولقد توصلت هذه الدراسات بشكل واضح إلى نتيجة نهائية تشير إلى عدم وجود ارتباط بين الدين والاستبداد في العالم الإسلامي، وكذلك عدم وجود علاقة تناقض بين أن تكون مسلمًا وأن تكون ديمقراطيًا. بل على النقيض، فنظم الحكم غير الديمقراطية في العالم الإسلامي لا تعاني ضغطاً للتوجه نحو الديمقراطية إلا ما تمارسه عليها الحركات الإسلامية، حتى إنهم لا يتعرضون لضغوط مماثلة من الغرب.

في كلمات أخرى يشكل الإسلام الخطر الأوحد على المستبدين من حكام العالم الإسلامي، وليس على أوربا. هؤلاء الذين ينظرون إلى المسلمين على أنهم أعداء للدستور وللقوانين، إنما ينكرون على الإسلام نظامه الشامل الخاص بحقوق الإنسان [٣]. هذا النظام الذي لا يخضع لأي أوامر أو تدابير إنسانية، بل

(١) مارك هللر: «الشرق الأوسط: خطوة خارج التاريخ» (باللغة الإنجليزية)، في «شؤون خارجية»، المجلد ٥٩، العدد ١ ص ١٥٢و ١٨٨ - ١٩٩.

(٢) غسان سلامة (ED): «ديمقراطية بلا ديمقراطيين؟» (باللغة الإنجليزية)، «تحديث السياسات في العالم الإسلامي». لندن/ نيويورك (١٩٩٤). وانظر مناقشاتي في كتاب «العالم المسلم» لا يكستر (١٩٩٥)، مجلد ١٦، عدد: ١ ص ٣٦ - ص ٣٩.

(٣) انظر فصول حقوق الإنسان: و «جمهورية أم ملكية؟» في كتاب مراد هوفمان: «الإسلام كبديل».

هو نظام إلهي، كما ينكرون عليه إمكاناته الديمقراطية وسيرورته الديمقراطية. وبالإضافة إلى ذلك، يتغاضون عن عمد عن حقوق الأقليات التي كفلها الإسلام.

لقد انشغل المشرعون المسلمون على مر القرون بشكل مكثف جداً بالوضع القانوني والالتزامات القانونية للمسلمين المقيمين في بلد غير إسلامي. ومن ضمن هؤلاء المشرعين الماوردي (توفي عام ١٠٥٨) الذي أيد الرأي القائل بأن هؤلاء المسلمين يتبعون قوانين البلد المضيف. ويبيح المذهب الحنفي للمسلم المقيم في إقليم مسيحي أن يتلقى الفائدة المالية، لأن تعاليم القرآن الخاصة بالنظام الاقتصادي لا سبيل لتطبيقها هناك[1]. فكيف يوجه الاتهام للمسلمين الألمان - في ظل تشريعات كهذه - بأنهم في مجملهم أعداء للدستور والقوانين؟!

ولكن، إذا قرئ القرآن خارج سياقه الكلي، وقلبت صفحاته بحثاً عن انتقاص لحقوق الإنسان ملازم للقرآن، فيجب إذن القيام بالمثل مع العهد الجديد.

وستواجهنا على سبيل المثال بعض النصوص المثيرة للشك في الرسالة الأولى لبولس، الموجهة إلى أهالي كورتيتوس: «أما من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها، فحسن للرجل أن لا يمس امرأة» (٧/ ١). أو «ليس للمرأة تسلط على جسدها بل الرجل». أو«أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب الانفصال، أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة»(٧/ ٢٧).

ومن أقوال باولوس في الرسالة الأولى لتموتاوس: «لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع ولكن لست آذناً للمرأة أن تُعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في

(١) خالد أبو الفضل «التشريع الإسلامي والأقليات المسلمة» في «التشريع الإسلامي والمجتمع»، مجلد ١ عدد ٢، لايدن (١٩٩٤).

سكوت لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء»(٢/ ١١). ويمكنني أيضاً أن أستشهد متلذذاً برسالة بطرس الأولى: «كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن»(٣/ ١).

هذا النهج الذي يسعى إلى إثبات خطأ فادح يصاحب الدين المسيحي منذ المهد في حق الديمقراطية، وكذلك الإشارة إلى عدم توافقها مع إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة، لهو ضرب من الغباء والتضليل، وبالتالي أمر خطير. فلماذا إذن نتبع النهج نفسه مع الإسلام؟!

ولن يندهش أحد، إذا أقررنا الحقيقة التالية، وأعتقد كذلك أننا لن نجد من يخالفنا الرأي: إن تنمية الاتجاهات المعادية للإسلام وتدعيمها، يتركان آثارهما في السياسة العليا والقرارات الحاسمة. وأوضح مثال من التاريخ القريب دولتا الجزائر وهايتي؛ تم انتخاب قائدين أصوليين في كلا البلدين، وذلك عن طريق قنوات ديمقراطية، وتم قمع هذا التطور الديمقراطي عن طريق انقلاب عسكري، وبالتالي حال دون ممارسة الديمقراطية. وقد تدخلت كل من الأمم المتحدة والولايات المتحدة في أحد البلدين، وهو هايتي، فأنزلت الولايات المتحدة قوات المارينز إلى أرض هايتي. أما في القطر الآخر، الجزائر، فقد تنفست الحكومات الأوربية الصعداء، حينما أطاح الانقلاب العسكري بعباس مدني، لأنه أصولي إسلامي، وليس أصولياً مسيحياً مثل أرستيد في هايتي.

ويقف الصراع في البوسنة - من منظور إسلامي - شاهداً جلياً على مبدأ «الكيل بمكيالين». فلقد تعرض - كما كان الوضع بالنسبة للكويت - عضو صغير في الأمم المتحدة للعدوان والاحتلال من إحدى دول الجوار، ولكن تدخل الأمم المتحدة اقتصر فقط على منطقة المصالح البترولية.

ونعود إلى البوسنة. فلقد سمي الضحايا بالمسلمين، ولكن أغفلت وسائل الإعلام تماماً الإشارة إلى ديانة المعتدين، فخلت وسائل الإعلام من الإشارة إلى القتلة الصرب بالمسيحيين الأرثوذكس أو الكروات الكاثوليك. وذلك بالرغم من علم الجميع وإدراكهم لأسباب جرائم الصرب، وأن تعطشهم المجنون للانتقام من معركة دارت رحاها قبل ٦٠٠ عام في Kosovo Polje، ويزكيها ويضرم نيرانها كل من بطريركي الصرب الأورثوذكسي واليونان الأورثوذكسي.

ولقد حرص الغرب دائماً على التأكيد بأن سلبيته إزاء المذابح والتطهير العرقي الذي يتعرض له المسلمون في البوسنة والهرسك لا تعود إلى دوافع دينية، إنما يحكم هذا الموقف أسباب أنانية تأخذ في اعتبارها المصالح الخاصة بالدول، أي إنها أسباب تتعلق بسياسات الدول. ولكن يعتقد المسلمون كافة أن تحيزاً دينياً قد لعب دوراً مهماً في تحديد مسار الصراع في البوسنة.

ويتشابه هذا الموقف مع إخفاق الغرب في عام ١٤٥٣، عندما سقطت القسطنطينية على يد السلطان العماثني محمد الثاني (الفاتح). ونستطيع أن نقرأ بوضوح في كتابات Steven Reinciman أن مشاعر الكراهية التي يكنها الكاثوليك في روما وفينسيا وباريس للكنيسة الشرقية المرتدة، المارقة، وعداءهم لها شكلا العامل الأساسي والحاسم في تخليهم عن روما الشرقية للعثمانيين[1].

لا يتوهم المسلمون على أي حال أن الغرب ما كان ليتدخل عسكرياً وبقوة إذا كان الصرب - بكل ما اقترفوه من الجرائم ضد البشرية مسلمين، والبوسنيون - بكل ما تحملوه من آلام - هم المسيحيين. إننا على يقين تام بأن الغرب كان سيشن

(١) ستيفن رونسيمان: «الاستيلاء على القسطنطينية (١٤٥٣)». ميونخ (١٩٩٠).

حرباً شعواء على هؤلاء المسلمين المتوحشين الهمج. وكل هذا باسم حقوق الإنسان، ومبادئ الأمم، وقيم الإنسانية الغربية.

أما أن يفرض حظر سلاح على البوسنة الكاثوليكية الضعيفة، فلا أستطيع أن أتخيل وجوده أبداً.

ولقد تجاهل الغرب، في محاولته حل الأزمة في البلقان، مبادئ وأسساً يمارسها حلف شمالي الأطلنطي، ويلجأ إليها دائماً. وبناءً على هذا، توصل المسلمون إلى النتيجة النهائية، وهي عدم الاهتمام والمبالاة تجاه مصير شعب إسلامي في أوربا.

ويلحق هذا الرأي، بطبيعة الحال، ظلماً ببعض السياسيين والعسكريين الذين ينتهجون سياسة عدم الانحياز، وذلك نظراً لاعتبارات موضوعية بعيدة عن الدين، ولقد أطلق سيناتور أمريكي صيحته: «ليت المسلمين درافيل»!! وهذه العبارة تشير إلى اهتمام جماعات السلام الأخضر بالدرافيل.

ولكن كل هذا لا يغير شيئاً في حقيقة شعور المسلمين تجاه الغرب. فالبرغم من تدخل حلف شمالي الأطلنطي (الذي تأخر كثيراً) في خريف عام ١٩٩٥، فإن كثيراً من المسلمين، خاصة في العالم الثالث، يتحدث الآن - وسيتحدث لمدة قادمة - بمرارة لاذعة، وبتهكم ساخر، عن مفهوم الغرب لحقوق الإنسان والديمقراطية. ولقد سمعت مراراً من شباب عربي أن حق الشعوب - على مايبدو - له عيون زرقاء وشعر أشقر!!

وأتفهم بطبيعة الحال توجيه العتاب للمسلمين في ألمانيا من غير المسلمين،

لحساسيتهم المفرطة تجاه تحديد المظاهر المعادية للإسلام. ولكن بالنظر إلى أعمال العنف العديدة، التي تمارس ضد الأجانب (غالباً من المسلمين)، فإن هذه الحساسية تصبح مفهومة، خاصة إذا ما تذكرنا الحقبة الاشتراكية القومية في ماضي ألمانيا القريب. فلم يمر سوى نصف قرن على عصر كان المواطنون الألمان في وطنهم يتعرضون للاضطهاد والإبادة، وذلك بأعداد غفيرة، وتمثلت جريمتهم الوحيدة في اختلافهم في الدين والملبس والعادات، أو حتى لأنهم يتحدثون بإحدى لهجات أوربا الشرقية.

ولقد سمح وجود عداء للسامية، وهو ضارب بجذوره في أعماق أوربا ومن ضمنها ألمانيا، بحدوث ذلك. كما أن هذا العداء حال دون وجود رادع أخلاقي يقاوم مثل هذه الجرائم، ويتصدى لها.

ويتمثل الخوف الأعظم للمسلمين في ألمانيا في احتمال اندلاع ميكانيزم مماثل، ولكن هذه المرة، فإنه موجه ضد شعب سامي آخر، ألا وهو العرب ودينهم، أي عداء للسامية العربية. (قالت أمي، عندما تلقت رسالتي الأخيرة من مكة: «فليبق عند العرب»).

ونسمع دائمًا أن تطوراً كهذا غير مرغوب فيه. وكم أود أن أصدق هذا، ولكن لا تكفي النيات الطيبة، أو الكلمات حتى الصادقة منها ليتحقق هذا. ولكنه يتحقق أولاً بمنع الحديث عن عدم قدرة المسلمين على ممارسة الديمقراطية وعدائهم للدستور، وأنهم لا يكنون أدنى احترام لحقوق الإنسان، وأنهم يستهدفون إقامة الجمهورية الإسلامية جرمانستان، ذات نظام الحكم الديني.

وإنني لآمل أن تكون التعليقات المعادية للإسلام في ألمانيا في المستقبل أكثر

حذراً. وأعتقد أن هذا الأمر بدأ يتحقق بالفعل في بعض الدوائر والمجالات. ولكن على الجانب الآخر، يلحظ المسلمون وأصدقاؤهم تزايد ونمو ظاهرة مقلقة. فلم يعد لائقاً سياسياً أن تتخذ موقفاً إيجابياً من الإسلام، أي أن تبدي بعض التعاطف مع هذا الدين!

لفت ألكس توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩) الأنظار إلى وجود ميكانيزم جماعي، وآليات، لمراقبة حرية الرأي والتحكم فيه، وكذلك في توجيه الرأي العام حتى في الديمقراطيات الليبرالية. وضمّن آراءه هذه وتحليلاته كتاباً بعنوان: «الديمقراطية في أمريكا». وبالفعل، شهدت أمريكا هستريا في صورة الحرب التي شنها السيناتور جوزيف مكارثي (١٩٠٩ - ١٩٥٧)، النائب عن ولاية ويسكنسن على «نشاطات غير مشروعة وغير أمريكية»، كما جاء في كلماته.

وإذا كان التعامل النظري مع الفكر الاشتراكي اليوم غير محرم، ولا يمثل جريمة يتعقبها القانون، فلا يعني هذا انتهاء أو موت المكارثية. فالمعارض، معرض اليوم ليواجه بالتهمة ذاتها، ولكن تحت مسميات ومصطلحات أخرى. فلم تعد التهمة أنه ينادي بأفكار «غير أمريكية»، ولكن تستخدم مصطلحات تدل على أنه لا ينتهج «تفكيراً سياسياً سليماً». ويعرض المرء نفسه لهذه التهمة (القاتلة سياسياً وعلمياً) اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية، إذا ما صدرت منه أدنى بادرة توحي بتساؤل أو تشكيك يدور حول أحد ثلاث محرمات (تابو):

١- المساواة بين الرجل والمرأة.

٢- المساواة بين البيض والزنوج.

٣- ارتباط السياسة الخارجية الأمريكية بمثيلتها الإسرائيلية.

❖ ❖ ❖

عُقد في شتاء عام ١٩٩٤ بفيينا مؤتمر حول «أوربا والأديان بين الحروب الدينية والتسامح المدني». ولقد أقر Robert Spaemann بانتشار مناخ غير ليبرالي في أوربا، وذلك باسم كونية ليبرالية. وذلك لأن عدم وجود المذهب، لا يقل خطراً عن وجوده. ومجمل القول: إن الليبرالية، في حقيقة الأمر، غير متسامحة مع غيرها من الأيديولوجيات، أي إنها بوصفها أيديولوجيا مثلها مثل منظومات فكرية أخرى[١].

وتمثل هذه الآراء الأرضية الحتمية «لتفكير سياسي سليم» في بلادنا. وتختلف المحرمات من بلد إلى آخر. فإبداء موقف إيجابي من الإسلام، لم يصبح بعد خطأ في الولايات المتحدة الأمريكية. أما في ألمانيا وإنجلترا، فهو بلا شك خطأ فادح، بل قاتل. (أخبرني ناشر كتبي بالإنجليزية في أثناء زيارتي له في ٢/ ١٠/ ١٩٩٥، أن المكتبات الإنجليزية تخجل وتستحي من عرض كتبي في نافذة العرض. فلم يعد عرض كتابات إيجابية عن الإسلام أمراً مقبولاً).

ولقد وقعت أنا نفسي ضحية لوسائل الإعلام، وذلك عندما أعلنت دار نشر Diederichs في أوائل عام ١٩٩٢ عن صدور كتابي «الإسلام كبديل»، في نهاية مارس من العام نفسه. فلقد أثار عنوان الكتاب وحده حملة ضدي في وسائل الإعلام خاصة في ARD وبيلد - يوم الأحد -.

وجهت لي هذه الحملة اتهامات عديدة، منها أنني أؤيد الزواج بأكثر من امرأة واحدة، وكذلك أؤيد الاعتداء بالضرب على النساء وبتر الأيدي ورجم الزاني

(١) نقلاً عن جريدة فرانكفورت ألجمانيه بتاريخ ٧/ ١٢/ ١٩٩٤، ص٥.

(بيلد ٢٢ من مارس). بل ادعت المجلة أنني أرغم ا لسيدات اللاتي يعملن معي في السفارة بالرباط على ارتداء الحجاب (بيلد ٢٩ من مارس)، وأنني دفعت أحد العاملين معي إلى الموت (بيلد ٥ من إبريل).

وبلغت هذه الحملة ذروتها في تعليمات نائبة رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني (SPD) ، وتشغل في الوقت ذاته منصب خبيرة الشؤون القانونية بالحزب. وجاءت أولى مقالاتها لتقول: «إن هذا الرجل لا يطاق ولا يحتمل سفيراً يمثل بلده». ودعت وزير الخارجية جنشر لقراءة الكتاب في أقرب فرصة، ليعمل على الحيلولة دون أن يمثل هذا الرجل دولتنا (مع أن اليسار ضد الفصل من العمل). وقالت: إن الكتاب يمثل لها «عمل إنسان ساذج مغفل لا يعلم حتى مبادئ دستورنا».

وعندما طالبت السيدة Däubler - Gmetin وزير الخارجية قراءة الكتاب موضع الاتهام، والاطلاع عليه، لم تكن قد قرأته هي نفسها، لأن الكتاب لم يكن قد صدر بعد!! وعندما تم أخيراً الاستعلام عني والتحري عن شخصي، والاطلاع على الكتاب، وجدوا أن جميع الاتهامات التي وجهت لي لا أساس لها من الصحة، وبعيدة كل البعد عن الحقيقة[1]. وصدق القرآن مرة أخرى (السورة ٥٣ : الآية ٢٨).

(١) كتبت مجلة «دير شبيجل» في عددها الصادر بتاريخ ٣٠/ ٣/ ١٩٩٢، تقول: «يقوم القانوني خريج هارفاد بالدعوة صراحة لتعدد الزوجات، ويرفض العنف في الزواج».

وكتب فريدي كشنايجر في مجلة «دي تسايت» يوم ١٥/ ٥/ ١٩٩٢ قوله: أما مؤلفو الروايات الساخرة عن الشطط الذي يمارسه آيات الله في ظل العلم الألماني، فقد فاتهم أن يقرؤوا مئتي الصفحة التي كتبها هوفمان».

تزامنت هذا الأحداث مع حلول شهر رمضان المعظم، فواصلت صيامي هادئاً مطمئناً. وكنت كثيراً ما أتذكر الآية الواردة في القرآن (السورة ٢٩ : الآية ٢)، وكذلك (السورة ٤ : الآية ١٣٢). ولقد تحير الكثير من زملائي من جراء هدوئي تجاه الحملة واسعة النطاق، التي استهدفت شخصي، ولكنني كنت على يقين - وما زلت - بأن هذه الادعاءات كانت ترمي إلى ما وراء شخصي، فهي تستهدف الإسلام عامة والمسلمين في ألمانيا خاصة.

كنت قد أخطأت بالفعل، من وجهة نظرهم؛ فموقفي الإيجابي من الإسلام كان عام ١٩٩٠ مقبولاً سياسياً، ولكنه لم يعد كذلك عام ١٩٩٢. وهذا هو التفسير الوحيد لتجاهل ممثلي وسائل الإعلام والسياسيين للمبدأ الأساسي الذي يحكم عملهم: «استمع إلى الطرف الآخر»، وذلك في أثناء حملة الاتهامات التي وجهت لي. لم تكن هناك حاجة أو ضرورة لسماع دفاعي، لأنني كنت قد ارتكبت الجرم الأفظع، بل وصرحت به: «إنني مسلم»!

وتكرر الموقف ذاته في خريف عام ١٩٩٥: محاولة ممارسة الضغوط من خلال وسائل الإعلام، لفرض موقف «لائق سياسياً» في سياق يكون الإسلام طرفاً فيه.

واستهدف الأمر هذه المرة شخصية بارزة، ذات مكانة رفيعة، وهي شيخة وكبيرة علماء الإسلام الألمان أنّا ماريا شيميل Annemarie Schimmel (Bonn). فلقد جرؤ القائمون على الأمر على منحها جائزة السلام، لاتحاد الكتاب الألماني، لعام ١٩٩٥، أي لعالمة يربطها بالإسلام صلات وثيقة، ولها إسهامات في التصوف الإسلامي.. عالمة تحظى باحترام عظيم في بلدان العالم الإسلامي وبخاصة باكستان. وكانت العالمة قد أعلنت رفضها لفتوى قتل سلمان رشدي، التي أصدرها الخوميني، ووصفتها بأنها «مروعة» و «مخيفة». وكان هذا الحكم

القانوني موفقاً سياسياً ومقبولاً من الرأي العام. ولكنها أقرت في الوقت نفسه بأن رشدي «جرح بأسلوبه مشاعر عدد كبير من المؤمنين». «لقد رأيت بالفعل مسلمين يبكون بسبب ما ورد في هذا الكتاب». فهي ذاتها غير المسلمة الباحثة في تاريخ الأديان، قد تعرضت لصدمة شديدة، مع أن الأمر كله يدور حول رواية. وكان إقرار الحقيقة هذا، والتعبير عن مشاعرها أمراً مرفوضاً سياسياً، ولا يلقى استحساناً لدى الرأي العام.

أما تلميذها وزميلها Gernot Rotter، الذي أجرى حديثاً معها، نشر في مجلة Spiegel، فقد رفض وصف تأثير «آيات شيطانية» في العالم الإسلامي، قائلاً: «إنني ما زلت على رأيي: فمحمد لا يتعرض حقيقة لإهانة في كتاب رشدي»[1].

وعلى أثر ذلك، اشتعلت حملة في وسائل الإعلام، وحملة للكتّاب، استمرت عدة شهور، تستهدف شيميل والحيلولة دون منحها الجائزة، واستمرت هذه الحملة حتى الموعد المحدد لتسلُّمها الجائزة في ١٥/ ١٠/ ١٩٩٥.

وغلب على الحملة مقولة إن هذه الشخصية لا تطاق بوصفها عالمة، وإنها تمارس مادتها، أي الإسلام، بكثيرمن التعاطف غير المسموح به على الصعيدين السياسي والعلمي.

ولقد شغلت المجادلات حول جائزة السلام الرأي العام في ألمانيا حتى اليوم المقرر لتسلّمها. ولا بد أن نتفهم حرص الرأي العام على متابعة مجريات الأمر، نظراً للدلالة الخطيرة التي كان الاتحاد العام للكتّاب سيحملها إذا ما سحب جائزته تحت ضغوط معينة، إذ سيكون هذا الموقف - الذي لم يحدث - بمنزلة إنذار

(١) «دير شبيجل» ٢١/ ١٩٩٥، بتاريخ ٢٢/ ٥/ ١٩٩٥، ص ٢١٤ - ٢١٦.

وتهديد لمكانة حرية الفكر والرأي العام والتعبير، التي يتمتع بها المرء في ألمانيا،

ولقد حاول رئيس قسم الدراسات الشرقية في بون، ستيفان فيلد، في حديث أدلى به للإذاعة يوم ١٤/ ١٠/ ١٩٩٥، لفت الأنظار إلى المحاولة الواضحة لمعاقبة شيميل على توصيلها لأخبار سيئة، أي غير مرغوب فيها، كما جرت العادة في العصور القديمة. وكان موقفه هذا موقفاً رقيقاً بين الزملاء.

وكان بمقدور الأستاذ Wild توجيه اتهام لـ Gernot Rotter، مفاده عجرفة تجعله يرى في أوربا مركزاً أوحد للكون.

كان رئيس الدولة مدركاً لحقيقة المناخ الفكري في ألمانيا، عندما أعلن عن قيامه بتسليم الجائزة بنفسه يوم ١٥/ ١٠/ ١٩٩٥، في كنيسة باول في مدينة فرانكفورت.

ولم يأت حديث عمدة المدينة، Betra Roth من فراغ، عندما تحدثت عن تصوير الإسلام بوصفه عدواً. كذلك لم يحتج الرئيس جزافاً في خطبته الاحتفالية على المحاولات التي تمارسها وسائل الإعلام لفرض آراء بعينها على الرأي العام. وكنت أتمنى أن يشير إلى الظاهرة «بالألمانية»، لأن ظاهرة عدم التسامح الفكري استوطنت ألمانيا فعلاً.

إنني أتساءل:

إلى أين سيصل بنا المطاف، إذاما كممت الأفواه في ألمانيا، لأنها تتحدث عن حقائق لا تتوافق مع أيديولوجية بعينها؟ ماذا سيحل بنا، إذا ما استباح الأساتذة والعلماء الألمان الحق لأنفسهم في إملاء مشاعر بعينها على مليار من البشر (غير المرغوب فيهم)؟!

فليحفظ الله ألمانيا - ليس مسلميها فحسب - من جراء عدم تسامح الأصوليين الليبراليين، وتصويرهم الإسلام عدوًّا!

الخاتمة

لايتبع الكتاب نظاماً محدداً سلفاً. لكن بالرغم من ذلك، فإنه يمكن للقارئ أن يتبين توجهاً أساسياً في تقسيم فصول الكتاب، ألا وهو «أركان الإسلام الخمسة».

فيتضمن الفصل الثاني الشهادة، ويدور الفصل الثالث حول الصلاة، والرابع حول الزكاة. ويتحدث الفصل الخامس عن الصيام. أما الفصل الأول، فموضوعه الحج.

ويتطرق الكتاب، بالإضافة إلى ذلك، إلى أهم الأوامر والنواهي التي تصوغ ممارسات الدين الإسلامي. فيناقش الفصل الرابع مسألة تحريم الخمر والمخدرات، ويستعرض الفصل السادس النهي عن تناول لحم الخنزير، وكذلك النحر وفق ما تمليه الشريعة الإسلامية.

أما الإيمان بالقضاء والقدر، فيتناوله الفصل السابع. ويدور الفصل الثامن حول الأضحيّة. ويحتل الحديث عن الزواج في الإسلام المساحة العظمى من الفصل التاسع. أما الفصل الحادي عشر، فيتناول العمل على نشر الدين، وتجهيز المتوفى ودفنه في الإسلام، وكذلك الاستعداد للتضحية بالنفس في سبيل الله ودينه (الفصل الأخير: جهاد).

وبالرغم من طابع السيرة الذاتية، الذي يتصف به الكتاب، فإنه يصلح في المقام الأول دليلاً عملياً للطريق إلى الإسلام، أي في سبيل الله.